***الأستاذة: بن سويكي**

***مادّة: قضايا نقدية**

***المستوى: الثّانية أدب حديث ومعاصر**

المحاضرة رقم:07+08/ إشكاليّة تطبيق المنهج:

*تمهيد

إشكالية المنهج في النّقد العربيّ الحديث، موضوع تناولته دراسات عدّة ومؤلّفون ونقّاد كثر، ولكن الموضوع ما يزال يطرح العديد من التساؤلات، سواء على المستوى النّظري أو على مستوى الممارسة التّطبيقية، ورغم تعدّد المناهج فإنّه يلاحظ على الدّارسين "التشتّت لما تحتويه –هذه المناهج- من غموض في مختلف جوانبها الفكريّة واللّغوية" ؛ نظرا لانفصالها عن بيئتها الثقافيّة ونموذجها الحضاريّ، ممّا عمّق وزاد إشكاليّات الممارسات النّقدية الّتي "تتطلّب توافر المنهج الّذي هو أساس الفعل النّقدي...إنّ قدرتنا على الإبداع تكمن في قدرتنا على إعادة توليد الأفكار الّتي تلقّيناها عبر التّاريخ، ومن دون المناهج الصّالحة تبقى النّصوص خرساء نستنطقها فلا تجيب"، ممّا يدفعنا لطرح الاستفهامات التّالية:

-هل يراعي المنهج النّقدي خصوصيّة النصّ الأدبيّ؟

-هل النصّ الأدبيّ هو الذّي يستدعي المنهج النّقدي، أم أنّ المنهج النّقدي يفرض قسرا على النصّ الأدبيّ؟

-ما الّذي حقّقته المناهج النّقدية المعاصرة للنصّ الأدبيّ؟ ألم تزرع بذور الشكّ في كلّ كاتب وكتاب ومكتوب وقارئ؟ ألم تجعل النصّ الأدبيّ مادة هلاميّة؟

-ألم يصبح التّراث النّقدي العربيّ مرهونا في أصالته وقدرته على الانفتاح والتجدّد بتعالقه مع المقولات النّقدية الغربيّة الحديثة؛ تمنحه البقاء، وتهبه شهادة استمرار الصّلاحية؟

-لماذا نظلم المنهج؟

الكلّ يعلم أنّ المنهج ممارسة لنظريّة ما، اعتمدت على حقل من المفاهيم وتوسّلت بمصطلحات استوردتها من هنا ومن هناك، لقد حمّل كثير من النّقاد والدّارسين المنهج مالا طاقة له ولا علم ولا معرفة، حمّلوه مسؤوليّة اختيار واستدعاء النصّ، وفرضوا عليه التكيّف معه، بدل أن يتركوا النصّ يختار، ما يناسبه، فنجدهم يقتلون النصّ بالمنهج ويفكّكون المنهج بالنصّ.

*01/تجدّد سؤال النّقد:

العمليّة النّقدية اليوم-بالمفاهيم الحديثة والحداثيّة- أصبحت معقّدة تتجاذبها مفاهيم عدّة، وهذا ما جعل "عبد الملك مرتاض" يضع النّقد في أسر ثلاث إشكاليّات ويذهب إلى عدم إمكانيّة تصنيفه بعيدا عنها، وهذه الإشكاليّات الثّلاث هي الّتي ظلّت تلاحق النّقد ويلاحقها، فإذا هو يزعم لنفسه أنّه قادر على تقمّص نزعة الفنّ طورا، وطورا ثانيّا على تقمّص نزعة العلم، وطورا آخر على تقمّص الاحترافيّة -الصّناعية بالتّعبير العربيّ القديم- ويطرح الاستفهام الآتي: هل يمكن أن نجعل النّقد فنّا خالصا، أم علما خالصا، أم مجرّد سفسطة خالصة ، ويتمثّل النّقد وهو تتجاذبه هذه الإشكاليّات الثّلاث في الخطّاطة الآتية:

إشكاليّة النّقد:

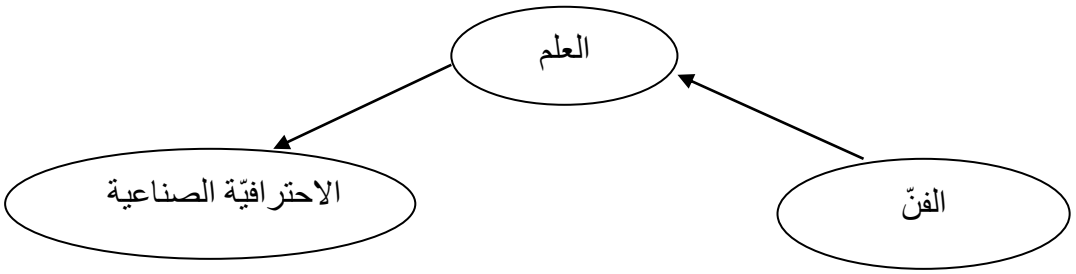

ويتساءل: هل النّقد الأدبيّ ممّا يمكن أن ينضوي تحت هذه الإشكاليّات الثّلاث متفرّدا، قائما بذاته؟ إنّنا لا نحسب ذلك، فلا النّقد الأدبيّ في الزّمن الرّاهن على الأقلّ، قادر على أن يكون فنّا خالصا، ولا هو أيضا مجرّد صناعة خالصة مجرّدة عن الفنّ والذّوق من وجهة، والعلم والمنطق من وجهة أخرى.

ويتعمّق في طرح الاستفهامات حول النّقد هل هو موجّه نحو الكتابة، أم الكاتب، أم القراءة؟؟ أسئلة كثيرة طرحت حول الكتابة، ويجيب "عبد الملك مرتاض" بقوله: "أنّ أطرافا ثلاثة تتلازم وتتداخل، فيرتبط بعضها ببعض، ويفضي بعضها إلى بعض، ويظاهر بعضها على بعض، وهذه الأطراف الثّلاثة هي الكتابة-أو الأدب أو النصّ الأدبيّ-والكاتب بكلّ أشكاله ومظاهره، والقراءة بكلّ أشكالها وأنواعها". وهل النّقد موجّه للكاتب/المؤلّف أم للكتابة/النصّ أم لآراء النّاقد؟

ونستفهم من جهتنا: هل السّاحة النّقدية العربيّة خاليّة من نقّاد أكفّاء؟ نكاد نجمع بقولنا: لا، هل الكتابات الحديثة-بما فيها النّصوص الأدبيّة (نثر وشعر)- لا ترقى لمصاف الأعمال الأدبيّة الحقّة؟ الأكيد أنّ فيها الغثّ والسّمين، وتحتاج إلى غربلة، وهذا يعود بالأساس إلى عدم صياغة نظريّة أدبيّة عربيّة، ومناهج تناسبها في النّقد والتّحليل، ومن ثمّة نتساءل من جديد: أين الخلل؟

02/إشكاليّة ممارسة المنهج النّقدي:

نستطيع أن نؤكّد أنّ الفكر النّقدي العربيّ يمتلك في الزّمن الرّاهن، فريقا من النّقاد المتألّقين؛ ولكن هؤلاء النّقاد لا يكادون يعمدون إلى التّنظير إلاّ من خلال اجترار النظريّات الغربيّة...إنّنا نعتقد أنّ الخطورة الفكريّة تكمن، ربّما في الإعجاب الذّي كثيرا مالا يفضي إلاّ إلى الاجترار، وإلاّ إلى الضّحالة والعقم؛ لأنّ المعجب بالشّيء قصاره أن يقلّده أو يحاكيه دون أن يفكّر في أن يضيف إليه شيئا، أو يحوّر منه شيئا، وذلك بحكم اعتقاده أنّه بلغ ذروة الكمال؛ وقد تأثّر "طه حسين" و"عزالدّين إسماعيل" وغيرهما، في أواسط العصر الحديث ب"مدام دوستاييل" و"هيمبوليت تين" وغيرهما، وهما يحاولان تثبيت منهج نقدي جديد حين تعدّدت المناهج الّتي اهتمّت بقراءة النصّ الأدبيّ.

الّذين يعزون المشكل في المنهج ويرجعون الخلل إلى ممارسته، ينبغي أن يعلموا أنّ "كلّ منهج لا بدّ له من نظريّة في الأدب، ونظريّة الأدب هذه تطرح أسئلة جوهريّة، وتحاول إقامة بناء متكامل للإجابة عن هذه التّساؤلات، وأهمّ هذه الأسئلة هو، ما الأدب؟ وعلاقاته" ، وأنّ المفهوم المعرفيّ المؤسّس للأدب "هو النظريّة، والمنهج النّقدي هو الّذي يختبر توافق هذه النظريّة مع مبادئها، ويمارس فاعليّته، ويتمّ تداوله عبر جهاز اصطلاحيّ يحمل قنوات تصوّراته ويضمن كيفيّة انطباقها-قربا أو بعدا-مع الواقع الإبداعيّ، والمنظومة الاصطلاحيّة تمثّل الطّرف الثّالث في العمليّة المنهجيّة، فعندنا إذن النظريّة والمنهج، والمنظومة الاصطلاحيّة تمثّل الأدوات المنهجيّة الّتي يطبّق بها المنهج وهي خاضعة للتّغيير من منهج إلى آخر، وتلعب المصطلحات الخاصّة بكلّ مجال دورا أساسيّا في التّمييز بين اختصاصات المناهج". فهل حقّقنا النظريّة حتّى نحقّق المنهج؟

من هنا فالعمليّة النّقدية ترتكز أولاً على النظريّة، ثمّ على المنهج والمصطلح، "وهذه الأطراف الثّلاثة؛ النظريّة، المنهج والمصطلح، تمثّل منظومة متكاملة تبدأ من الإطار الشّامل (النظريّة) وتنتهي إلى التقنيّة المتداولة الّتي يستعملها أصحاب المنهج في ممارساتهم العمليّة...التحوّلات الّتي تحدث في أيّة نظريّة تؤدّي إلى تعديل في المنهج والمصطلح"، ويمكّننا التّعبير عنها بالخطّاطة التّالية:

مرتكزات العمليّة النّقدية:

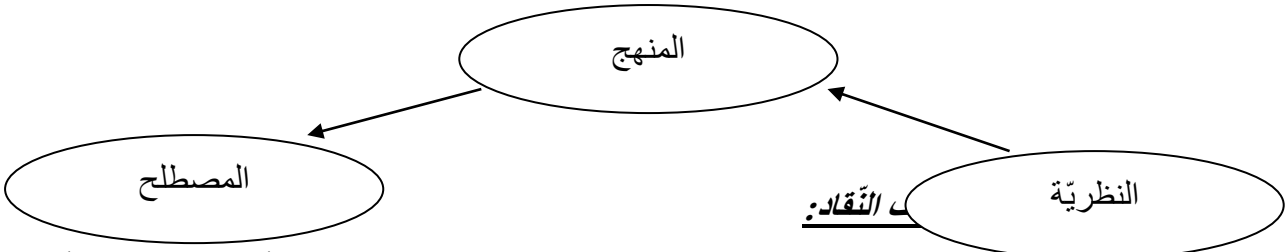

ـ النّقاد:

يمكن أن نجزم بضياع المنهج في خضّم انقسامات حوّلته إلى مناهج في بعض الأحيان متعارضة أو متخاصمة، برغم تقارب التّعريف، فالمنهج هو: "الطّريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامّة الّتي تهيمن على سير العقل وتحديد عمليّاته حتّى يصل إلى نتيجة معلومة"، أو أنّه "التّرتيب الصّائب للعمليّات العقلية الّتي نقوم بها بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها" ، أو هو"طريقة يصل بها الإنسان إلى الحقيقة، (...)، لقد وجد الإنسان في المنهج أنّه ييسّر عليه طريقة المعرفة، ويوفّر له الجهد والعناء، وكلّما تقدّمت الحضارة وازدهرت، كلّما كانت الحاجة إلى المنهج أشدّ".

ويعرّف النّاقد "عبد الله إبراهيم" المنهج بكونه "سلسلة العمليّات المنظّمة الّتي يهتدي بها النّاقد وهو يباشر وصف النّصوص الأدبيّة وتنشيطها، واستنطاقها ويشترط أن يكون المنهج مستخلصا من آفاق تلك الرّؤية"، حيث رهن القراءة النّقدية في ركيزتين هما، الرّؤية، والمنهج النّقدي، فقال: "تقوم أيّ قراءة نقديّة بوصفها فعالية منشّطة للنّصوص الأدبيّة على ركيزتين أساسيتين هما: الرؤية الّتي يصدر عنها النّاقد، والمنهج الّذي يتّبعه لتحقيق الأهداف الّتي يتوخّاها من قراءته"، فالرؤية عنده هي "خلاصة الفهم الشّامل للعمليّة الإبداعيّة".

ويعتمد المنهج النّقدي على التصوّر النّظري والتّحليل النصيّ هذا أنّ النّاقد يحدّد مجموعة من النظريّات النّقدية والأدبيّة ومنطلقاتها الفلسفيّة والإبستيمولوجيّة ويختزلها في فرضيّات ومعطيات أو مسلّمات، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى التّأكد من تلك التصوّرات النظريّة عن طريق التّحليل النصيّ والتّطبيق الإجرائيّ ليستخلص مجموعة من النّتائج والخلاصات التّركيبية".

بينما هو عند "يمنى العيد": "المنهج ليس قالبا جاهزا في حرفيّته، وتفاصيله، المنهج مفهوم أو مجموعة مفاهيم يتطلّب مجرّد تبنّيها مقدرة شخصيّة وجهدا ثقافيّا هاما، كما أنّ ممارسة هذه المفاهيم، ليس مجرّد تطبيق بل إعادة إنتاج لها، قابلة للتّبلور والتميّز، وخاضعة في تبلورها وتميّزها لعلاقتها بالموقع الفكريّ الّذي تمارس علاقتها بموضوعها وبالوضعيّة الثّقافية والاجتماعيّة الّتي تشكّل حقل ممارستها".

فالمنهج مفاهيم ممارستها ليست تطبيقا بل إنتاجا خاضعا للمحيط الخارجيّ للنصّ، ومن خلال هذا التّباين يمكننا أن نقول: أنّ كلّ مصطلح أو منهج إلاّ ويحمل في أحشائه -حتما-خلفيّة فكريّة، تختصر نفسها، ورؤيتها، وتحليلها، من خلال المصطلح النّقدي، والمنهج الّذي يلائمه ويستعمل في إطاره، ويتبادل الخدمة معه، ففهم المنهج على أنّه مجرّد أدوات هو فهم سطحيّ، وتمثّل ناقص للمنهج وطبيعته.

وفي الموضوع نفسه يخبرنا النّاقد "عبّاس الجراري": "لقد شاع أنّ المنهج مجرّد وسيلة للبحث عن المعرفة وفحصها، أي مجرّد خطّة مضبوطة بمقاييس وقواعد وطرق تساعد على الوصول إلى الحقيقة، وتقديم الدّليل عليها، هذه مجرّد أدوات إجرائيّة، وهي في نظرنا، لا تمثّل إلاّ جانبا واحدا من المنهج، أقترح تسميّته بالجانب المرئيّ في المنهج...ولكن هناك جانب آخر غير مرئيّ، باعتبار المنهج، أوّلا وقبل كلّ شيء، وعيا ينطلق من مفاهيم ومقولات وأحاسيس ذاتيّة، وتنتج عنه رؤية، ويتوّلد تصوّر وتمثّل للهدف

من المعرفة، من هذين الجانبين: المرئيّ واللاّمرئي، يتكوّن المنهج –أيّ منهج صحيح- من منظومة متكاملة ومتناسقة".

ويضيف: "إنّ قيمة المنهج ليست كامنة فقط في نوع الأدوات الّتي استعملها الباحث، سواء أكانت صالحة أو غير صالحة، لمجرّد أنّ البحث، أو أنّ موضة تقتضي نوعا ما من المناهج، ولكن قيمة أيّ منهج رهينة بما يحقّقه في نطاق رؤيته وهدفه... وأوّد أن ألفت النّظر إلى قضيّة أساسيّة ألّح عليها، وإن أغفلها الكثيرون ممّن يأخذون ببعض المناهج، وهي أنّه يجب أن نعترف بتعدّد هذه المناهج، وبأنّنا قد نقبل بعضها وقد نرفض بعضها الآخر، ولكنّنا حين نفعل لا ينبغي أن نراعي منطلقاتها الفلسفيّة، وإنّما علينا أن نراعي مدى صلاحيّتها وطواعيّتها لموضوع الدّرس"، وعدم مراعاة منطلقاتها (الثّقافية والفكريّة)، وتطويعها للممارسات النّقدية.

***04/أزمة تحليل النصّ الأدبيّ:**

الحديث عن الأزمة الخانقة الّتي يعاني منها تحليل النصّ الأدبيّ يستدعي الحديث عن مواصفات هذه الأزمة، فكلّ أزمة، أيّا كان نوعها، تسبّب خللا واضطرابا وتعكس تطلّعا نحو الجديد وسعيا حثيثا نحو الكمال في حدوده الممكنة، ويعدّ تاريخ الأزمة في تحليل النصّ الأدبيّ، وفي مضمار النّقد الأدبيّ عموما، هو تاريخ التّجاوز الحاصل في تاريخ النّقد من نظريّة لأخرى ومن منهج إلى آخر، وهكذا يبدو أنّ الأزمة قدر لا مفرّ منها على أيّ حال، وهذا يستدعي تشخيصها في الوقت الرّاهن، ويمكن القيام بذلك على ثلاثة مستويات تظهر فيها أزمة المنهج في النّقد الأدبيّ وتحليل النصّ.

***أ/مستوى الذّات القارئة:**

لا منهج بلا ذات فاعلة ومنفعلة ومتفاعلة؛ فالذّات هي الّتي تتبنّى المنهج وتختاره دون غيره لمواجهة نصّ من النّصوص؛ فالذّات في تعاملها مع المنهج إمّا أن تنحو منحى الموضوعيّة والحيّاد وإمّا أن تنحو منحى الذّاتية والارتباط النّفسي والشّوفيني المعروف بالتّعصب .

وبالنّظر إلى تعامل الذّات العربيّة مع المنهج في تحليل النصّ الأدبيّ، نلفيها قد راوحت بين النّظرة الموضوعيّة والنّظرة الذّاتية، في حال تبنّيها لمنهج نقدي عربيّ قديم أو منهج غربيّ معاصر، واستمر هذا الوضع المتميّز من التّعامل منذ عصر النّهضة العربيّة إلى الآن.

فالمعضلة النّقدية على مستوى الاختيار المنهجيّ تبدو معضلة إنسانيّة تفرض حلاّ لا يتعالى عن الإنسان وكفاءاته؛ فالذّات تخلق حلّها انطلاقا من تفاعلها مع المنهج، فتتبنّاه من سبيل موضوعيّة أو من طريق ذاتيّة.

***ب/مستوى الموضوع:**

لا منهج بلا موضوع، فالنّص الأدبيّ هو موضوع المنهج النّقدي ومنهج تحليل النّصوص، والمنهج التّحليليّ منهج إنسانيّ يتميّز بجملة خواص باعتبار موضوعه، وهو النصّ الأدبي، وأهمّ هذه الخواص:

-النّص/موضوع المنهج: إنتاجيّة أدبيّة مؤطّرة بإنتاجيات ثقافيّة واجتماعيّة أكبر.

-النصّ/فضاء شكلي وفضاء دلاليّ: فهو لعبة مؤلّفة من المبنى والمعنى؛ إنّه مرّكب يشمل على أجزاء تمثّل دلائل تفصيليّة على قدرة الإنسان وكفاءته (Competence) الإبداعيّة ضمن تاريخ الأشكال الأدبيّة وتاريخ الأنواع والأغراض، وهذا النّتاج الإبداعيّ تؤطّره مجموعة من استراتيجيات التّواصل ومقصديّات الإبلاغ.

-إنّ الموضوع الأدبيّ، وهو النصّ، موضوع إنسانيّ متعال عن الضّبط الصّارم والتّحديد المطلق، لهذا لزم انتقاء الأدوات الإجرائيّة الكفيلة بالتّلازم مع نوعيّة الموضوع أو النصّ المراد تحليله.

ج/مستوى المنهج:

المنهج كطريقة للتّناول والتّحليل الأدبيّ، لا يقوم دون عناصر تدعمه وتكمّل وظيفته التّحليلية، وأهمّ هذه العناصر عنصر النظريّة والتصوّر (La conception)، فالنظريّة ضروريّة للمنهج، وبدونها لا وجود للمنهج، فهما مترابطان، فالمنهج يخرج من رحم النظريّة، فهي تضبط مكتسباته وتحدّد فضاءات اشتغاله ، وتحدّد مستوياته التّطبيقية والطّرق التّحليلية، وتاريخ النظريات والتصوّرات الإنسانيّة يعكس مدى التحام المناهج بالنّظريات والآفاق التصوريّة:

*أ-فالنظريّة الاجتماعيّة في القرن التّاسع عشر قد فسحت المجال للمنهج الاجتماعيّ في دراسة الظواهر الاجتماعيّة مع "أوغست كونتAugust Conte"، وتطوّرت تطبيقات هذا المنهج الاجتماعيّ فانتقلت إلى الدّراسة الأدبيّة والفكريّة فشملت اجتهادات كثيرة تلائم بين النظريّة الاجتماعيّة وأنواع من الكتابة الأدبيّة.

*ب-والنظريّة النّفسيّة الفرويديّة الكلاسيكيّة فتحت بابا كبيرا أمام تطوير المنهج النّفسي في دراسة الأدب، وهكذا استغلّ "جاك لاكان" بنية اللاّشعور في منهجه لدراسة الكتابة الأدبيّة، وطوّر "شارل مورون Charles Mauron" مفهوم الأسطورة الشّخصية للكاتب والأديب، واعتمد "باشلارBachelard" على مفاهيم الإيحاء النّفسي لعناصر نشأة الكون ومفاهيم إيحاءات الأحلام في مجال تحليل الظواهر الأدبيّة، ومال "جان بيير ريشار" إلى الاهتمام بأعماق الكاتب (Les profondeurs de l’ecrivain) في تحليل النّصوص الأدبيّة.

*ج-النظريّة اللّسانيّة والتصوّرات اللّغوية ذات الطّابع اللّساني صارت بدورها في اللّحظة الرّاهنة إحدى النظريّات النّقدية البارزة الّتي رفدت سوق المناهج النصيّة بأنماط متعدّدة من مناهج تحليل النصّ الأدبي، ويتمّ التّمييز في النظريّة اللّسانية بين نوعين من المناهج:

*منهج ينبثق من النظريّة اللّسانية باعتبارها دراسة واصفة (Etude dexcriptive) للّغة؛ وهو منهج يعتمد على التّحليل الذريّ للعناصر الدّنيا والوحدات اللّسانية الصّغرى كالصّوت (Son) والفونيم (Phoneme) والكلمة (Mot)، وقد يعتمد على التّحليل الشّمولي الّذي يهتمّ بالجملة ويقيم دعائم نحو الجملة (Grammaire fonctionnelle).

وقد يميل التّحليل إلى زاويّة من زوايا الخطاب كالزّاوية الدّلالية، كما نلاحظه في مناهج التّحليل الدّلالي ذات الطّابع اللّساني؛ وهي مناهج تهتمّ بتحليل مستويات الدّلالة التصوريّة (La Semantique Conceptuelle)، مستويات الدّلالة المعجميّة (La Semantique Lexicale) ومستويات الدّلالة التّركيبية (La Semantique Syntaxique).

*منهج ينبثق من النظريّة اللّسانية ذات الطّابع التّداولي الشّمولي وهو منهج يهتمّ بتحليل مقصديّة الخطاب ونواياه(Les intention Du Discours) واستراتيجيات التّواصل في ظلّ السّياقات الأدبيّة واللّغوية؛ فالمنهج التّداولي يخرج عن نطاق الضّبط الصّارم للوحدات الدّنيا للخطاب الأدبي، لينفتح على تعدّدية الأصوات في النصّ الأدبي وتداخل فعالياته الإنتاجية.

تلك إذن مجموعة من النظريات الّتي رفدت مناهج تحليل النصّ الأدبيّ بمجموعة من الخلفيّات الفكرية الّتي لا يستقيم العمل التّحليلي المنهجي دونها.

وبعد أن وقفنا على بعض مشخصات الأزمة وعناصرها، على مستوى الذّات القارئة ومستوى

الموضوع/النصّ الأدبي، سنحاول أن نبرز سلبيّات كثيرة لا يخلو منها منهج تبشّر به هذه النظريّة أو تلك من النظريّات السّابقة في عرضنا وسنحاول فيما يلي تقديم اقتراحات لحلّ الأزمة المنهجية الرّاهنة.

05/سلبيّات المنهج في النظريّات الاجتماعيّة والنّفسية:

يمكن أن نختصر هذه السّلبيات المنهجيّة في العناصر الآتية:

*النّزعة التّفسيرية: تبحث هذه الاتّجاهات الاجتماعيّة والنّفسية عن مسلّمات جاهزة غير قابلة للتّغيير مهما تعدّدت فضاءات النّصوص المحلّلة؛ فالمنهج أداة إجرائيّة تبريريّة يستجيب لمتطلّبات النظريّة ومقتضياتها على جميع مستويات التّحليل.

ففي كلّ منهج اجتماعيّ مثلا أصول ثابتة قد تتغيّر استراتيجيات التّعامل معها، ولكنّها تظلّ أصولا ثابتة تفرض سيطرتها التّوجيهية على المنهج وتطوّعه لنزعتها التّفسيرية، ومن مسلّمات المنهج الاجتماعيّ أنّ الأديب ابن بيئته وأنّ الكاتب يعبّر عن طائفته الاجتماعيّة وفكرها (كولدمان ولوكاتش)، وأنّ الإطار الاجتماعيّ والثّقافي يحدّد أدبيّة الكاتب في السّياق الاجتماعيّ (روبير إسكاربين R.Escarpit)، والأديب يعكس أوضاعا اجتماعيّة واقعيّة (النظريّة الانعكاسيّة والمنهج الاجتماعي الكلاسيكيّ في صورته الستالينيّة).

*السّرعة في الاستنتاج: تتسرّع المناهج الاجتماعيّة والنّفسية في الاستنتاج، وتكتفي بالحكم على النصّ الأدبيّ من خلال الحكم على جزء منه، ففي النظريّة النّفسية ابتسار كبير لحقيقة النّص، إذ تختزل هذه الحقيقة في المعطى النّفسي سواء اتّخذ هذا الشّكل أو ذاك في إطار العمل التّحليلي، فاللاّشعور في النصّ هو المحرّك الأوّل والأخير للفعاليّة الإبداعيّة عند "فرويد"، واللاّشعور يتّخذ شكل بنية في تحليل "لاكان"، واللاّشعور هو أعماق الكاتب عند "بيير ريشار"، واللاّشعور وتمظهراته تجد تعبيرها الأمثل في الأسطورة الشّخصية للأديب في منهج "شارل مورون التّحليلي".

*تشابه الدّراسة النّقدية على مستوى النّتائج والتّأويلات: وهذا التّشابه الملحوظ في النظريّة الاجتماعية أو النظريّة النّفسية ليس راجعا إلى علّة منهجيّة، لأنّ المنهج ليس دقيقا ولا رياضيّا ينتظر معه أن تكون التّطبيقات المختلفة منفتحة على النّتائج نفسها، وإنّما هو راجع إلى كون المسلّمات والمسبقات ذات الطّابع التّفسيري والإيديولوجي تفرض ذلك.

ونظرة عجلى إلى المتن النّقدي الرّوائي عندنا تدلّ على مدى تشابه النّتائج الّتي يفضي إليها التّحليل بالمنهج الاجتماعيّ للرّواية، وهذا لا يدلّ على تشابه الرّوايات وتماثل فضاءاتها وأزمنتها السّردية، بقدر ما يدلّ على تشابه المنطلقات التّفسيرية والمسلّمات الإيديولوجيّة، الّتي تعبث بمجموعة كبيرة من الظواهر الرّوائية الّتي تظلّ ناتئة على التّفسير السّاذج، وتنتظر منهجا يحترم خصوصيّة العمل الأدبيّ وتفرّده الذّاتي.

*انعدام الضّبط الصّارم والدّقيق للمصطلحات الإجرائيّة وذلك من جهتين:

-الجهة الأولى: انعدام الضّبط المصطلحيّ في مهد النظريّة نفسها، حيث يتعامل النّقاد مع الرؤية والتصوّر الواحد بمصطلحات كثيرة ومتنوّعة، تضيّع معها وحدة المنهج والطّريقة التّحليلية.

-الجهة الثّانية: انعدام الضّبط المصطلحيّ في البلاد العربيّة الّتي تستورد كثيرا من بضاعتها المنهجيّة من الغرب، ويمكن أن نقف على صورة لهذا الخلط الحاصل في الكتابات النّقدية العربيّة المعاصرة من خلال ملاحقة ترجمة مصطلحات منهجيّة ونقديّة كرؤية العالم ورؤية الكون والفهم والتّفسير والشّرح والأسطورة الشّخصية والأسطورة الملحّة والأسطورة الخفيّة واللاّشعور وما فوق الشّعور واللاّوعي.

فهذه ترجمات متعدّدة ومتباينة لمصطلحات وافدة من النظريات الغربيّة في حقول النّقد الأدبيّ، ولا يخفى ما تشكو منه أوضاع التّرجمة النّقدية والضّبط المصطلحيّ عندنا من خلط واضطراب وسوء استعمال.

*سلبيّات الاتّجاهات الوصفيّة واللّسانية: نختصر سلبيات الاتّجاهات الوصفيّة واللّسانية في نواقص هي مصدر أزمة المنهج في تحليل النصّ الأدبيّ من وجهة وصفيّة ولسانيّة، وأهمّ هذه النّواقص:

1/الهاجس العلميّ: لقد استقلّت اللّسانيات (linguistique) انطلاقا من عهد "سوسير" الّذي أعلن انفصال العلم اللّساني عن غيره من الظواهر الاجتماعيّة والأدبيّة والفكريّة في مطلع هذا القرن، وصارت اللّسانيات تطالب بوضع قانونيّ يسمح لها باستقلال شخصيّتها بين العلوم الأخرى.

وكان هذا الوضع من المطالبة بالاستقلال التّام، مصدر وعي شقي كان يشكو منه النّقاد اللّسانيون في كلّ فترات حياتهم العمليّة والعلميّة، لقد تشكّلت حركة براغ (Brague) ورفعت لواء الشكلانيّة (Le formalisme) لصدّ المدّ الواقعيّ الّذي اكتسح السّاحة الأدبيّة والنّقدية واللّسانية زمنا طويلا.

*ارتباط النظريّة اللّسانية بالكلام العادي لا الكلام الأدبيّ:

تأزّم المنهج اللّساني في تحليل النصّ الأدبيّ لشعور المحلّلين اللّسانين بأنّ منهجهم قد وضع لمعالجة الكلام العادي وهو الخطاب اليوميّ، لا لتحليل النّصوص الأدبيّة ذات الرّقي الجمالي والبلاغي، وأمام هذا الوضع، ظهرت انعكاسات أهمّها:

أ- البحث عن صيّغ تبيح شرعيّة البحث اللّساني في النصّ الأدبيّ، كتقسيم مجالات الخطاب وبنياته حسب مجالات البحث اللّساني وشعبه وتخصّصاته الّتي تشمل الأصوات والتّركيب والدّلالة والمعجم وتداوليات الخطاب.

ب- نقل المصطلح اللّساني إلى النّقد الأدبي، وقد تمّت عمليّة النّقل أوّل الأمر من طرف لسانيين مثل "سوسير" الّذي يشير "بالي" (Ch. Balley) إلى أنّ له دراسات في الشّعر والأدب، ومثل "جاكبسون" الّذي اشتغل بمسائل الشّعرية وكتب حول علاقة اللّسانيات والنّقد، ثمّ ظهر التّطبيق اللّساني على نطاق أوسع مع النّقاد بعد ذلك.

ت- تكسير طوق النّفوذ اللّساني الأكاديمي وتطويع المصطلح اللّساني للتّطبيق الأدبي والنّقدي.

ويظهر ذلك من خلال محاولات المناهج البنيويّة الأدبيّة، والمناهج الإحصائيّة ومناهج دراسة الأنساق الدّلاليّة ودراسة السّرد وتطبيق التّحليل النّحوي والبلاغيّ لدراسة منطق النصّ وتحليل فضاءاته وأزمنته، تلك هي مشكلات المناهج التّفسيرية والوصفيّة واللّسانية في مجال تحليل النصّ الأدبيّ، فما هي بعض آفاق حلّ الأزمة الرّاهنة يا ترى؟

*آفاق حلّ الأزمة من خلال اقتراح منهج نقدي:

إنّ المنهج التّحليلي الّذي من شأنه أن يتجاوز سلبيات المناهج المشار إليها في ثنايا الكلام السّابق ينبغي أن يكون منهجا يمثّل نمطا من التّركيب الضروريّ بين ما هو وصفيّ وما هو تفسيريّ، وقد قادنا النّظر في مشكلة المنهج في تحليل النصّ إلى اختيار منهج وصفيّ تفسيريّ يحاول أن يفي"بحقيقة" النصّ الأدبيّ من جميع الجهات، وأطلقنا على هذا المنهج السّيميائي التّداولي (La methode semo-pragmatique) .

ومن خصائص هذا المنهج أن يهتمّ بالتّواصل في صوّره اللّغوية والأدبيّة جميعا، فهو منهج سيميائيّ تواصليّ أدبيّ يقوم على أساس سيميائيات التّواصل الأدبيّ (Semiotique de la

communication litteraire)، وهي في نظرنا تتمّ المشروع الّذي بدأته نظريّة التقبّل (La Teorie de la reception litteraire) الّتي تعتمد على الذوق والانطباع والإيحاء، في حين أنّ المنهج السّيميائي التّواصلي (التّداولي) الأدبيّ الّذي نقترحه يضيف إلى عناصر نظريّة التقبّل الأدبيّ عناصر النظريّة اللّسانية والتّداولية، فهو منهج يقترح تحليل النصّ من زواياه اللّسانية والتّداولية والتّواصليّة الأدبيّة. وبذلك فهو يجمع حسنات المناهج التّفسيرية والمناهج الوصفيّة اللّسانية، ويقترح دمجا علميا بين مستويات التّحليل المذكورة يوازي تكامل مستويات البناء الفنيّ والفضاء الدّلالي والطّاقة الإشارية والإيحائيّة في النصّ الأدبيّ كفعاليّة متعدّدة الواجهات، ولهذا الاختيار الّذي لجأنا إليه مبرّرات نختصرها في العناصر الآتيّة:

1-إنّ النصّ الأدبيّ فضاء لتقاطع ثقافات وأشكال من الوعي الفكريّ والفنيّ، ولهذا يلزم أن تتدخّل فاعليّات وصفيّة تفسيريّة لتفكيك عناصر إنتاجية النصّ من أجل إعادة تركيبها في أفق نظرة سيميائيّة تداوليّة أرحب.

2-إنّ المنهج السّيميائي التّداولي يبحث في قضايا المبنى وقضايا المعنى، ويؤسّس فهما عميقا ودقيقا لمستويات العلاقة بين الشّكل والمضمون في سياق تداوليّ شموليّ.

3-إنّ النصّ الأدبيّ تركيب معقّد لفضاءات متباينة منها الاجتماعيّ والنّفسي واللّساني والإيديولوجي، ولا يمكن فهم حقيقته الأدبيّة في نظرنا إلاّ بتشغيل سائر الطّاقات التّحليلية الإنسانيّة الممكنة لا على سبيل الانتقاء الاعتباطيّ والتّسليم المسبق، وإنّما عن طريق الوعيّ بالإنتاجيّة الأدبيّة في النصّ والسّعي إلى الكشف عن العناصر المتحكّمة فيها والمواجهة لها على سائر مستويات البناء الظّاهري أو البناء الفكريّ والتصوريّ الخفي للنصّ.

4-إنّ المنهج السّيميائي التّداولي الّذي ندعو إليه ليس اقتداء بسمات "قريماص" (Greimas) أو "بروب" (Propp) أو "بريطو" (Prieto) أو "يالمسليف" (Hjelmslev)، ولا اقتداء بتداوليّة "أوستين أوسورل أوكرايص"، وإنّما هو رؤية منهجيّة تسعى إلى اقتراح متواضع لحلّ أزمة المنهج في تحليل النصّ في بحوثنا ودراساتنا الأكاديميّة، وهي أزمة تدخل في صميم همومنا العربيّة الرّاهنة على مستوى الدّرس والبحث الجامعيين على وجه أساس، ولا يتأتّى الخروج من الأزمة المنهجيّة الخانقة إلاّ بالاستفادة من سائر المناهج النّقدية القديمة والحديثة مع السّعي إلى الانفتاح على تركيب منهجي يستجيب لتركيب بنيات النصّ الأدبيّ وتداخل مستويات فعاليته الانتاجيّة.

وإذا جاز لنا أن نختار لمنهجنا المقترح خلفيّة نظريّة وفكريّة يعتمد عليها في استمداد تصوّراته كلّما كان ذلك ممكنا، وليس بصورة ضروريّة كما هو الشّأن في المناهج التّفسيرية الّتي انتقدناها في كلام سابق، فإنّنا نرشح نظريّة الأنتروبولوجيا الثقافيّة (L’anthropologie Culturelle) للقيام بهذا الدّور التأطيريّ للمنهج السّيميائي التّداولي الّذي يخلّصنا، من كثير من سلبيّات المناهج الّتي درجنا عليها في صورتها التّفسيرية والوصفيّة واللّسانية .

***خاتمة:**

إنّ أزمة المنهج في الدّراسات النّقدية الحديثة والمعاصرة، حقيقة لا يمكن تجاوزها أو إغفالها، ولكن لا يجب تسليط سهام النّقد على المناهج لوحدها، لأنّها آليّات تستدعيها نظريّة أو نظريّات عجزت إلى الآن عن توحيد مفاهيمها ومصطلحاتها، ممّا جعل العمليّة النّقدية غير ناجعة وأخلطت الأدوات الّتي يتّكئ عليها الباحث ويتوسّل بها في سلوك طريقه، فلم يصل إلى الهدف المنشود من العمليّة النّقدية.

من هنا وللمساهمة في الإجابة على إشكاليّة المنهج، فلا مناص من تحديد هويّة النظريّة الأدبيّة وتأسيس

جهاز مصطلحيّ قادر على الإجابة عن تساؤلات المنهج والتّمييز بين المناهج المختلفة، ولن يتحقّق هذا ما لم يعتمد الدّرس النّقدي العربيّ على مقوّمات ثقافته المؤسّسة على لغته بأبعادها الفكريّة والثّقافية، لا أن يرتمي في أحضان كلّ نقد وناقد غربيّ، ويربط نفسه بسلاسلهم، فتكون قيدا في سبيل النّهوض بالنّقد العربيّ، ويأسر نفسه في نظريّة ومناهج وفوضى مصطلحات ترهن النصّ الأدبيّ والنّاقد والقارئ معا.

فمتى عزمنا على حلّ إشكاليّة المنهج في الأدب العربيّ فلا بدّ من تأسيس نظريّة أدبيّة عربيّة وفق رؤية عصريّة وتحديد آليات ناجعة للممارسة النّقدية، وضبط الجهاز المصطلحي بعيدا عن الأنا والرّؤى الضيّقة.

مصادر ومراجع المحاضرة:

-عبد العالي بوطيّب: إشكالية تأصيل المنهج في النّقد الرّوائي العربيّ.

- عبد الملك مرتاض: في نظريّة النّقد.

-حسن جاد: دراسات في النّقد والأدب.

-سيّد قطب: النّقد الأدبيّ أصوله واتّجاهاته.

-صلاح فضل: مناهج النّقد المعاصر.

-يمنى العيد: في معرفة النّصّ.

-محمّد صابر عبيد: تجلّي الخطاب النّقدي من النظريّة إلى الممارسة.